

# فلسفة التحليل النفسي<sup>(١)</sup>

النفس لغز والتحليل النفسي منشاخه

اخرج العلامة فرويد نظرية التحليل النفسي Psycho-analysis وطريقة تطبيقها من نحو ثلاثين سنة . واقترح علاجاً نفسياً لطائفة من الامراض العصبية . ولكن هذه النظرية على ما فتحت من ابواب الامل في تهديد سبل جديدة لكشف خفايا النفس ، خيبت نظر النقاد الذين يحق لهم ان يحكموا في موضوعها ، وهي اليوم معرضة للاهال بتهمة انها افتراض نظري ليس له اساس علمي سليم يستند اليه . بل يقولون انها تجربة خطيرة كل الخطر ، وان الشفاء الذي تم بواسطة التحليل النفسي في الامراض العصبية ، لم يحقق من الوجهة الاحصائية ولا من وجهة الدليل السريري Clinical على انه قد تم حقيقة ولا ما هي نسبة ما تم منه الى ما لم يتم . يضاف الى ذلك ان متخرجي مدرسة فرويد في التحليل النفسي الذين احرزوا الشهادة التي نحو لهم ممارستها يعوزهم التعليم الطبي والمرأة ، اللذان يمكنهم من فهم الاضطرابات العصبية ، دع عنك تشخيصها ومعالجتها . ثم ان السماح رجال لم يتعلموا التعليم الطبي ، في معالجة الادواء الجسدية والعقلية ، عرضة للساوئ ، والمضاد والتسجيل ، وهو خطر على الصحة العامة . وكثير من الاطباء الذين بحثوا في حينات التحليل النفسي وامتنحوها يرون ان ما يدعيه رجال هذه المدرسة النفسية ، مغالى فيه شديد المغالاة .

ان منشاخ النظرية الفرويدية هو ان الاضطرابات النفسية — من عقلية وباطنية — والاضطرابات الجسدية كذلك ، تنشا في كثير الاحوال ، من اسباب نفسية لا من اسباب جسدية . فقد كشف فرويد وهو يبحث ويجرب التجارب بالتنويم المغناطيسي في عيادة الدكتور شاركو Charcot يبارس ان المرضى المعابين بالمستيريا ، اذا ناموا بفعل التنويم المغناطيسي ، كشفوا احياناً من تلقاء نفوسهم ، عن طبيعة اصابتهم واسبابها . ولما كان فرويد نفسه غير باارع في شؤون التنويم المغناطيسي ، شرع يحاول ان يكشف عن طرق ووسائل اخرى ، ليفذها الى العقل الباطن . وكان يعتمد انه يستطيع ان يشفي مصاباً من هذا القيل بقل سبب العلة من العقل غير الواحي الى العقل الواحي ، لانه اذا ادرك المصاب طبيعة اصابته واحبابها ، زال اولاً خوفه وقلة واضطرابه ، فيزول النزاع بين الذات الواحية ، والذات غير الواحية وتنتصر الاولى على الثانية فتم لمصابنا نعمة الشفاء . وقد اطلق على مجموعة الانكار المشتركة التي تسبب الداء او الاضطراب ، بالمركب او العقدة . وهما تعقان فيهما معنى من معاني

(١) للدكتور فوكس من السيكسك اميركان بتعرف قيل

اللفظ الأصلي *Temple* . وبعد بحث تجريبي في معانين بالمستيرية وشديدي توثر الاعصاب صرح ان المركبات البنائية عن هذه الامراض العنيدية سببها رغائب جنسية غير تامة النضوج، مكبوتة لا تبدو في مظهرها الطبيعي ، وان هذه الرغائب انفعلت عن تيار الوعي ، فالتفت شخصية او ذاتاً مستقلة عن ذات الانسان العامة، وان هذه الذات المستقلة في حالة ثورة عنيفة على الذات العادية. وفرد ويد يعلق شأنها خطيراً فكافة الرغائب الجنسية ويذهب الى ان الرغبة الجنسية التي يدعوها «ليبيدو» *Libido* هي اساس لكل مطامح الانسان. ثم هو يدعي ان هذه الحالة — اي حالة النزاع بين الذات المنفصلة والذات العامة — يمكن ان تثنى ، يربط اثبات الثائرة بالذات العامة ، ثم اكفاء الرغائب غير الواعية ، بتحويلها الى ناحية جديدة . ويعرف هذا العسل بالتحليل *Transference* فاذا قامت عقبة تحول دون تحويل الرغائب ، الى ناحية جديدة كانت العقبة بمثابة مقاومة في علم الكهربائية ، وكان لا بد من المناورة والمحاولة والمداورة في محاولة تخليتها او التغلب عليها

يفتح التحليل طريقين الى درس العقل الباطن او النفس غير الواعية، طريق مجموعة الافكار المشتركة اشتراكاً حراً، وطريق تفسير الاحلام

والتفكير عن الرغائب المكبوتة بطريقة اشتراك الافكار يعرف باسم «كاملبريس» *Gaithari* اي التطهير او التنصيف من اللفظ اليوناني كاتاروس اي نظف . والمقصود باشتراك الافكار الحرة ما يأتي : ان تداعي الافكار *Association of ideas* عمل من أعمال الذاكرة . فانت لا تستطيع ان تذكر شيئاً الا وتربطه بشيء آخر او تقابله به . ومعرفة كل انسان هي كل الحقائق التي يستطيع ان يذكرها مضافاً اليها الحقائق التي نسيها او لا يستطيع ان يتذكرها . فاذا حاول الانسان ان يجعل تداعي افكاره ، شعورياً اي خاضعاً لارادته ؛ حاول ان يتذكر حقيقة مخزونة في الذاكرة ، يربطها بحقيقة اخرى يسهل تذكرها . وفي هذا اللون من التفكير ، يكون توجيه الفكر ، شعورياً ومقصوداً وسيطراً عليه

و نحن نعلم ان الافكار والصور الذهنية واحلام اليقظة ، تنبع احياناً على تيار الوعي او الشعور ، من دون ان يبذل اي جهد خاص في ذلك . فاذا استوقفتنا هذه الافكار والصور الشاردة ، لحظة من الزمان ، اكتشفنا ان كل فكر وكل صورة ذهنية، طلقت على تيار الوعي من دون قصد منا ، هو في نفسه ، او هي في نفسها، مسلكت الى محج من مخايب العقل الباطن، فهي اذا تلتى ضوءاً كشافاً على النواحي المظلمة من ذهن الانسان ، المنفصلة عن الذاكرة ، او المجهولة من الذات الشاعرة. وهذا هو المقصود، في مدرسة فرويد، باشتراك الافكار اشتراكاً حراً *Free association* ذلك ان غرضه استكشاف العقل الباطن بواسطة سلسلة حلقاتها الافكار الطافية على تيار الشعور ، ومعرفة صلتها بمخايب العقل الباطن

وتحليل النفس عمل لا يتعلمه الانسان تصفاً ، لأنه عمل ذهني طبيعي . فينزع الانسان في استكشاف نفسه في مراحل سهلة الاجتياز . فبدون الحقائق المتفرقة التي يكشفها ثم يربط بينها ثم ينشئ منها صورة منسجمة الاجزاء ، تبين له نشأة احواله العاطفية وتاريخها . فالافكار الشاردة والصور الذهنية الطافية من دون ارادة او قصد على تيار الوعي ، واحلام اليقظة ، هي كلها كاحلام النوم ، فيض العقل الباطن الذي يعرب عن رغبة كاسنة في الباطن او شعور او اضطراب داخلي . وكل صورة منها ، ككل جزو من الاحلام ، انما هي نفض من اللغة الرمزية التي يتكلم بها العقل الباطن . وهي تختلف عن لغة العقل الواعي . فالشعور بالبرد ، يوقظ في العقل الواعي انواتاً من افكر ، تأتلف وهذا الشعور ، مثل « فصل السنة » و « الملابس » و « الاماكن الباردة » و « الوسائل اللازمة لاقائه البرد » . اما في الحلم — حلم النوم — فالحلم يجيء اولاً ثم يليه الشعور بالبرد . فخذ مثلاً على ذلك ، رجلاً يأوي الى سريره في غرفة باردة ، وفراش غير دافئ ، فيحلم انه متقطع عن العالم على جبل من جبال الپليد . والشعور بالخطر يوقظ النائم ، فيحلمه شعور بالبرد ، على البحث عن دثار يتدثر به ليدفأ . والحلم انسان لفته الرمزية الخاصة به . ولا يتشابه اتنان . فحالة تفسير احلام الواحد بمرور الآخر ، عمل لا بد ان يفضي الى اخطاء . من هنا نرى ان محاولة رجل ان يقوم بتحليل نفسي دقيق لرجل آخر ، عمل متعذر . فلنخص التحليل النفسي يستطيع ان يرشد لان يعلم . انه لا يستطيع ان يهضم اكل غيره ، ولا ان يحلل نفس غيره . وفعاً طرائق عديدة لتحليل النفس وكلها تبدأ بترك العقل الباطن يفيض بما يختلج فيه من المشاعر والافكار ، ويلي ذلك توجيه محبة الشخص الجنسية الى شخص معين . وهذه اتاحية من التحليل النفسي ، هي الناحية التي يتدأ بها رجال الدين وجماعة المدافعين عن آداب النفس ، لان المحللين النفسيين ، يوجهون هذه المحبة في الغالب الى اشخاصهم . والامر الذي لم يفهم بمدى على صحته ، هو هل يتم الشفاء باستكشاف العقل الباطن ، او باشباع المحبة الجنسية في شخص المحلل النفسي ، او بكليهما ؟

واذن يرى القارىء ان هذه الدماوى ، ليدت على جانب من الدقة العلمية ، او الاخلاص ، او الادب . ادا كان التحليل النفسي يشفي ، فكيف يشفي ؟ اتناعلم ان العواطف المضطربة تحدث اضطراباً وقتلاً في وظائف الجسم والعقل ، وان معظم هذه الاضطرابات ينشأ في العقل غير الواعي . والاعراض فامضة ، معظمها من نوع الخواوف الموعومة ، والنزاع الداخلي ، وكبت الشعور ، وشدة الاحساس ، والرغبات النابية ، والحب ، والحجل في الصلات الاجتماعية والمعجز عن صبة الفكر وتوجيهه الى موضوع واحد .

والمصاب يكون في الغالب ، كثير الاضطراب والهم ، لا يستطيع ان يصمد للصدمات التي تتنابه ولا ان يحتمل ما في الحياة من اخدر ورد . ومدد وجزر . فهو كشيء دائماً متجه

الى نفسه ، اقل شيءٍ و يجره و يرتلعه . فاذا كانت الحادثة حادة ، اصيب بالارق وضعف الضبية وانخفاض ضغط الدم وخذقان القلب واضطراب الغدد والهمتيريا والمعجز الجنسي والشوق الى تناول الخدشات وضحف النطق او اضطرابه وغيرها من الاعراض التي يسفر عنها اضطراب الجهاز العصبي . واسباب هذه الاضطرابات او بعضها رقائب مكبوتة او محبوسة في العقل الباطن ، تنشأ زائعاً او تناحراً بين اجزاء الشخصية الواحدة . اي ان الذات الباطنة تكون في حالة ثورة فتفتكك وحدة الذات العقلية والجسدية ، في آن واحد

والشفاء من هذه الحالة ، الباعثة على التمس والشقاء، مشكلة صعبة شديدة التعقيد ويوجب الاقبال على حلها في هوادة وحذر . فالغرض من كل علاج من هذا القبيل ، يجب ان يكون القضاء على التناحر الداخلي ، واطلاق العواطف المحبوسة المكبوتة، واستنباط الوسائل لهدئة الرغبات غير المشبعة او تحويلها او تسكينها . وقد ذكرنا ان « الجرح » النفسي هو في العقل الباطن . واذاً فيجب ان يمدد رواق العقل الواعي الى ما وراء حدوده العادية ، حتى يضم تلك الاجزاء التي كانت مستقلة في العقل الباطن فيدمجها في وحدته الشاملة . وهذه الخطوة هي الاولى نحو العلاج ، ويمكن خطوها بواسطة الترويم المغناطيسي ، واشتراك الافكار بالمعنى المقصود في مدرسة التحليل النفسي ، او حل رموز اللغة التي تتكلم بها النفس غير الواعية في البقطة او في النوم . فاذا اكتشف المصاب الباعث الاساسي على حالته ، وفهم طبيعة الاضطرابات التي اصيب بها ، وروح ذلك منه ، وحدث من الشك الملامم للخوفه ، فيعود اليه جانب من ايمانه وثقته بنفسه . ويستيقظ الامل في صدره وما يسير مع الامل من حماسة تمكنه من السير نحو الشفاء ، انما بفضل الاستهراء الذاتي . واذا يشرع المصاب في معالجة نفسه ، يجب ان يتعمد على تحليل النفس ، بتدوين العواطف والخاوف والرغائب والتراخي والكواجح ، وما يجب وما يكره ، التي تطفو على تيار وعيه . ويفضل ان يختار غرفة هادئة حيث لا يفتنقه مقلق ، فيدون في ورقة امامه الاعراض والخاوف والرغبات . فيأخذ مثلاً رغبة من الرغبات ، ويرى ما يتصل بها من الصور الذهنية . المتسلسلة في نفسه تسلسلاً حراً ، فيدون كل حلقة من حلقاتها . وقد يلتي نتائج هذه الصور احياناً ما يعيقه وما يقطعُه بلفظة او صورة او فكرة . فليدون ذلك وليضع تحتُه خطاً احمر ، لان ما يقطع تسلسل الصور الذهنية ، يشير الى الموانع او الكواجح في الحياة العقلية ، اي ما يكبح النفس او يمنعها من الاستسلام الى رغبة من رغباتها فاذا وال المصاب ذلك ساعة كل يوم مدة ثلاثة اسابيع اجتمعت لديه الحقائق الاساسية عن اعماق تلك الذات الباطنة ، التي بينها وبين الذات العامة نزاع او تناحر هو منشأ الاضطراب . فاذا اتعت معرفته بتلك الذات الخفية ، طادت اليه ثقته في نفسه الناشئة عن المعرفة ، والثقة تجر في ارجاء القدرة والسيطرة على النفس . وهذه اول مرتبة من مراتب الشفاء